# أدب الحديث (٢)

**الكلام الطيب خصلة تسلك مع ضروب البر ومظاهر الفضل، التي ترشح صاحبها لرضوان الله، وتكتب له النعيم المقيم. فعن أنسٍ قال: قال رجل للنبي ﷺ:**



الشيخ/ محمد الغزالي

«عَلِّمْنِي عَمَلا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، قَالَ: أَطْعِمِ الطَّعَامَ وَأَفْشِ السَّلامَ وَأَطِبِ الْكَلامَ وَصَلِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِسَلامٍ»[1].

وقد أمر الله عزَّ وجل، بأن يكون حِجاجُنا مع أصحاب الأديان الأخرى في هذا النطاق الهادئ الكريم، لا عنف فيه ولا نكر، إلا أن يجور علينا امرؤ أثيم، فيجب كبحُ جماحه، ومنع اعتدائه:

﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

وعظماءُ الرجال يلتزمون في أحوالهم جميعًا ألا تبدو منهم لفظة نابية ويتحرجون مع صنوف الخلق أن يكونوا سفهاء أو متطاولين.

ومن الناس من يعيش صفيق الوجه شرِس الطبع لا يحجزه عن المباذل يقين، ولا تلزمه المكارم مروءة، ولا يبالي أن يتعرض للآخرين بما يكرهون؛ فإذا وَجد مجالًا يُشبع فيه طبيعتَه النزقة الجهول، انطلق على وجهه لا ينتهي له صياح، ولا تنحبس له شِرَّة.

والرجل النبيل لا ينبغي أن يشتبك في حديث مع هؤلاء، فإن استثارة نزقهم فساد كبير، وسد ذريعته واجب؛ ومن ثم شرع الإسلامُ مداراة السفهاء.

حدث أن وقف رجلٌ من أولئك الجهال أمام بيت الرسول يريد الدخول، فرأى النبي أن يحاسنه حتى صرفه. ولم يكن من ذلك بدٌّ

(١) مسند البزار (٦٩٩٦). (المجلة).

-فالحلم فدامُ[٢] السفيهِ- ولو تركه يسكب ما في طبيعته الفظة لسمع ما تتنزه عنه أذناه!!

وعن عائشة قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «بئس أخو العشيرة هو» فلما دخل انبسط إليه وألان له القولَ، فلما خرج قلتُ: يا رسول الله، حين سمعتَ الرجل قلتَ: كذا وكذا. ثم تطلقتَ في وجهه وانبسطتَ إليه! فقال: «يا عائشة متى عهدتِني فاحشًا؟ إنَّ من شر الناس عند الله تعالى منزلةً يوم القيامة من تركه الناسُ اتقاء فُحشه»[٣].

وهذا مسلك تصدقه التجارب؛ فإن الرجل لا يسوغ أن يَفقد خلقه مع من لا خُلُق لهم. ولو أنه شغل بتأديب كل جهول يلقاه لأعيته الحيلُ من كثرة ما سوف يلقى؛ ولذلك عدَّ القرآن الكريم في أوائل الصفات التي يتحلى بها عباد الرحمن، هذه المداراة العاصمة:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾

(الفرقان: ٦٣)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥)

وقد يكظم الإنسان غيظه مرةً أو مرَّتين ثم ينفجر، بيدَ أن المطلوب من المسلم الفاضل أن يطاول الأذى أكثر من ذلك حتى لا يدع الشرَّ يسيطر على الموقف آخر الأمر.

عن سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه، ثم آذاه الثالثة، فانتصرمنه أبو بكر رضي الله عنه، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر.. فقال أبو بكر: أوَجدتَ عليَّ يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنْ نزل ملَكٌ من السماء يكذبه بما قال، فلما انتصرتَ، ذهب الملكُ، وقعد الشيطان، فلم أكن أجلس إذ قعد الشيطان»[٤].

ومداراة السفهاء لا تعني قبول الدَّنية؛ فالفرق بين الحالين بعيدٌ:

الأولى: ضبط النفس أمام عوامل الاستفزاز، ومنعها طوعًا أو كرهًا من أن تستجيشها دواعي الغضب وإدراك الثأر.

أما الأخرى: فهي بلادة النفس، واستكانتها إلى الهون! وقبولها ما لا يرضى به ذو عقل أو مروءة.

وقد أعلن القرآن محبته لمداراة السفهاء وكراهيته لقبول الدنية فقال تعالى:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا

(٢) الفدام والفِدَامة: مايوضع على الفم سدادًا له. (المجلة).

(٣) صحيح البخاري، (بنحوه)، حديث رقم: (٦٠٥٤). (المجلة).

(٤) سنن أبي داود، (بنحوه)، حديث رقم: (٤٨٩٦). (المجلة).

﴿...مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٤٨، ١٤٩)

ومن الضمانات التي اتخذها الإسلام لصيانة الكلام عن النزق والهوى تحريمه الجدل، وسدُّه لأبوابه، حقًّا كان أو باطلًا.

ذلك أن هناك أحوالًا تستبد بالنفس، وتُغرِي بالمغالبة، وتجعل المرء يناوش غيره بالحديث، ويصيد الشبهات التي تَدْعم جانبه، والعبارات التي تروج حجته، فيكون حب الانتصار عنده أهمَّ من إظهار الحق، وتبرز طبائع العناد والأثرة في صوَرٍ منكرة، لا يبقى معها مكان لتبيُّنٍ أو طمأنينةٍ!!

والإسلام ينفر من هذه الأحوال ويعدُّها خطرًا على الدين والفضيلة.

قال رسول الله ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطلٌ بُني له بيتٌ في رَبَض الجنة، ومن تركه وهو محقٌّ بُني له في وسطها، ومَن حَسَّنَ خُلُقَه بُنِيَ له في أعلاها»[٥].

وهناك أناس أوتوا بسطة في ألسنتهم، تغريهم بالاشتباك مع العالم والجاهل، وتجعل الكلام لديهم شهوةً غالبةً، فهم لا يملونه أبدًا.

(٥) سنن ابن ماجه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، بلفظ: «مَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَهُوَ بَاطِلٌ بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلَاهَا»، حديث رقم: (٥١). (المجلة).

وهذا الصنف إذا سلط ذلاقته على شئون الناس أساءَ، وإذا سلطها على حقائق الدين شوّه جمالها وأضاع هيبتها.

وقد سخط الإسلام أشد السخط على هذا الفريق الثرثار المتقعّر.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[٦]. وقال: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ»[٧].

هذا الصنف لا يقف ببسطة لسانه عند حد، إنه يريد الكلام فحسب، يريد أن يباهي به ويستطيل، إن الألفاظ تأتي في المرتبة الأولى، والمعاني في المرتبة الثانية، أما الغرض النبيل فربما كان له موضوع آخر، وربما عزَّ له موضع وسط هذا الصخب.

ولقد حدث أن واحدًا من أولئك الأغرار وَفدَ إلى النبي ﷺ: «... عَلَيْهِ شَارَةٌ حَسَنَةٌ» فجعل النبي ﷺ لا يتكلم بكلام إلا كلَّفَته نفسُه أن يأتي بكلام يعلو كلام النبي ﷺ!! فلما انصرف قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله لا يُحِبُّ هذا وأضرابَهُ، يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم لِلنَاسِ لَيَّ البَقَرِ بِلِسانِها المَرْعَى، كذلك يَلْوِي الله تَعالى أَلْسِنَتَهُم وَوُجُوهَهُم في النارِ»[٨].

(٦) صحيح البخاري، عن عائشة – رضي الله عنها– حديث رقم: (٢٤٥٧). (المجلة).

(٧) سنن الترمذي، عن أبي أمامة رضي الله عنه، حديث رقم: (٣٢٥٣). (المجلة).

(٨) صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، مكتبَة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١، سنة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠ م، ٣/ ٢٥٠، حديث رقم: (٣٢٠٧). (المجلة).

والجدال في الدين، والجدال في السياسة، والجدال في العلوم والآداب عندما يتصدى له هذا النفر من الأدعياء البلغاء، يفسد به الدين، وتفسد السياسة والعلوم والآداب. ولعل السبب في الانهيار العمراني، والتحزب الفقهي، والانقسام الطائفي، وغير ذلك مما أصاب الأمة الإسلامية، هو هذا الجدل الملعون في حقائق الدين، وشئون الحياة.

والجدل أبعد شيء عن البحث النزيه والاستدلال الموفق.

رُوي عن عدد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، قالوا: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا، وَنَحْنُ نَتَمَارَى فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا لَمْ يَغْضَبْ مِثْلَهُ، ثُمَّ انْتَهَرَنَا، فَقَالَ: «مَهْلًا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، أخذوا الْمِرَاءَ لِقِلَّةِ خَيْرِهِ. ذَرُوا الْمِرَاءَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُمَارِي، ذَرُوا الْمِرَاءَ، فَإِنَّ الْمُمَارِيَ قَدْ تَمَّتْ خَسَارَتُهُ. ذَرُوا الْمِرَاءَ، فَكَفَاكَ إِثْمًا أَنْ لَا تَزَالَ مُمَارِيًا. ذَرُوا الْمِرَاءَ، فَإِنَّ الْمُمَارِيَ لَا أَشْفَعُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ذَرُوا الْمِرَاءَ، فَأَنَا زَعِيمٌ بِثَلَاثِ أَبْيَاتٍ فِي الْجَنَّةِ فِي رِبَاضِهَا، وَوَسَطِهَا، وَأَعْلَاهَا لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ صَادِقٌ(٩).

وللناس مجالس يتجاذبون أطراف الحديث فيها. والإسلام يكره مجالس القاعدين، الذين يقضون أوقاتهم في تسقُّط الأخبار وتتبع العيوب؛ لأن لهم فضول أموال يستريحون في ظلها، وليسوا يجدون شغلًا إلا في التسلي بشئون الآخرين.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ (الهمزة: ١ – ٥)

وقد فشا في عصرنا هذا جلوس الجماهير في النوادي والمشارب.

وتلك آفةٌ أصابت المجتمع بعللٍ شتى. وقد كثرت في المدائن والقرى لغير ضرورة مشروعة.

وفي الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»(١٠).

(٩) المعجم الكبير، للطبراني، حديث رقم: (٧٦٥٩). (المجلة).

(١٠) صحيح مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، حديث رقم: (٢١٢١). (المجلة).